

نشأت نشأتها الأولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم إلى مرتبة العصمة والتأليه، فإذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاما الصغير وحملت بعينها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهي تتفرج على منظرٍ طريفٍ، وجال في قلبها إكبارٌ تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل.

إلا أن شيئاً من ذلك — في مدى السنوات الطوال — لم ينعشها ولم يلمس كوامن أنوثتها ولم يقدر من سرورها به وحنينها إلى جواره مثل ما نعشها وسرى فيها وتجلّى عليها في حادثة عرضية حدثت ذات مساء في مركبةٍ من مركبات الأجرة بين الزمالك والجزيرة.

كانت المركبة تسير على مهلٍ والحوذي قد غفل عن إشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس، فصدمت واحداً من ثلاثة أو أربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل في محاذاة العوامات والذهبيات، وذلك جرم من الحوذي تضيق عنه رحمة الله! فإن كل شيء ليجوز للحوذي الغافل إلا أن يصدم السادة «رجال الضبط»، وهم هم أصحاب الحول والطول والقول الفصل في الخيل والمركبات والسيارات والحوذية والساقّة، وما يحملون ومَن يحملون! ... فإذا كان ذلك في أثناء «تأدية وظيفة» كما يسهل القول والإثبات، فويلٌ يومئذٍ للمسكين ... إنه لذاذهب من الدار إلى النار وما له من شفيح.

وقد كان أصاب الغافل الأثيم جزاءه اليسير في سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان، فجذبه «رجال الأمن» من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مرانٍ على هذا الضرب من المصافحات، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له إلا ضربات متداركات تتبارى فيها الألسنة والكفوف.

وطال الخصام ولاح لهما أن لا يؤذن بختام ... فلم يجد مناصاً من النزول والسعي في الإصلاح، ولم يغب عن باله أن اللجاجة قد تفضي برجل الضبط «المعتدى عليه» إلى كتابة محضر واستدعاء شهود، وأنه سيكون لا محالة واحداً من هؤلاء الشهود، فإذا أفضى الأمر إلى ذلك فقد كان ينوي أن يعطيهم عنوانه إن قنعوا به أو يصاحبهم بعد أن يحتال في صرف سارة وإبعادها عن القضية ما استطاع.

على أن المسألة لم تلجئ إلى شيء من ذاك، ولم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين، فقد كان «رجال الضبط» ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون همام بالرؤية والسماع وإن لم تجمعهم به صداقة، فتلطّف أكبرهم وحيّاً هماماً بلقبه دون اسمه، واتجه إلى الحوذي بعد أن صفعه الصفعة الأخيرة وأسلمه الرخصة المنزوعة ... وهو يهنئه بالسلامة، إكراماً